

الإمام محمد البشير الإبراهيمي وتفسير القرآن الكريم

الطالب: خالد مهدي. جامعة الجزائر 1.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصّرة والسّلام على رسوله الكريم، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فإنّ المتنبّع لما ذكره الإبراهيمي رحمه الله، في آثاره حول التّفسير ليذكر أنّه متضلع في هذا الفن، إلّا أنّه رحمه الله، تعالى، لم يفرد هذا العلم العظيم بمؤلف مستقلّ، نظرا لأشغاله الكثيرة التي لم تترك له وقتا لتأليف الكتب.

لقد كان الإبراهيمي رحمه الله، يلقي دروسا متنوّعة في مختلف العلوم ومن بينها تفسير القرآن الكريم، وكان يهتم بالتّفسير اهتماما كبيرا كما هو واضح من خلال آثاره، وهو الأمر الذي يدفعنا للتّساؤل عن آرائه في التّفسير ومنهجيه فيه، وأين ذهبت كلّ تلك الدّروس؟.

إنّ البحث في هذا الموضوع تتجلى أهميته في أنّه يبرز جهود الإمام الإبراهيمي، رحمه الله، وآرائه في تفسير القرآن الكريم من خلال ما بقي من كلامه في هذا الموضوع ضمن آثاره، إذ الهدف من هذا البحث هو التعريف بجانب من الجوانب العلمية عند هذا الإمام، والتي لم تنل حظها من الدّراسة، حيث لم أجد، في حدود اطلاعي، من كتب في هذا الموضوع، فأغلب الدّراسات، إن لم أقلّ كلّها، تتناول الجانب الإصلاحي

عند الإبراهيمي رحمته الله، إلى جانب بلاغته وفصاحته لغته القوية. ومن أجل ذلك كان منهجي في معالجة الموضوع استقرار المواضع التي تطرق فيها الإمام الإبراهيمي رحمته الله، للتفسير، ثم تحليلها والربط بينها لتكوين صورة متكاملة عن آراء الإبراهيمي رحمته الله، في التفسير.

وفي سبيل ذلك قسّمت البحث وفق الخطّة الآتية:

مقدمة.

تمهيد: ترجمة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

البحث الأول: مفهوم التفسير شروط فهم القرآن عند الإمام الإبراهيمي

المطلب الأول: مفهوم التفسير عند الإمام الإبراهيمي

المطلب الثاني: شروط فهم القرآن حسب الإمام الإبراهيمي رحمته الله.

البحث الثاني: مناهج التفسير.

المطلب الأول: منهج السلف في التفسير.

المطلب الثاني: مناهج المفسرين السابقين.

المطلب الثالث: حال التفسير والمفسرين في زمن الإبراهيمي.

البحث الثالث: الإبراهيمي وتفسيره للقرآن الكريم.

المطلب الأول: مكانة الإمام الإبراهيمي في التفسير.

المطلب الثاني: الإبراهيمي وتدرسه التفسير.

المطلب الثالث: التعريف بمقال: درس في التفسير؛ سعادة المسلمين في

العمل بالقرآن.

المطلب الرابع: منهجه في التفسير وخصائصه من خلال مقاله: درس في

التفسير

سعادة المسلمين في العمل بالقرآن.

خاتمة.

تمهيد: ترجمة الإمام محمد البشير الإبراهيمي

مصادر ترجمة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله، كثيرة، وقد ترجم الشيخ لنفسه في ثلاثة مواضع من آثاره هي: ج 4 ص 89-90/ ج 5 ص 163-170/ ج 5 ص 272-293. ومن هذه المواضع الثلاثة لخصت هذه الترجمة:

اسمه ونسبه: هو محمد البشير بن محمد السعدي بن عمر بن محمد السعدي بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي نسبة إلى قبيلة (أولاد إبراهيم)، قبيلة عربية ينتهي نسبها إلى إدريس بن عبد الله الجد الأول للأشراف الأدارسة؛ مؤسس الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى.

ولادته: ولد عند طلوع الشمس من يوم الخميس الرابع عشر من شهر شوال سنة ست وثلاثمائة وألف 1306 هـ، ويوافق الثالث عشر من جوان سنة 1889 م، في بادية تابعة لمدينة (سطيف) من مقاطعة قسنطينة، في بيت عريق في العلم.

نشأته ومسيرة حياته: نشأ رحمه الله، تعالى، في بيت والده على ما ينشأ عليه أبناء البيوتات العلمية الرفيعة من طرائق الحياة، وهي تقوم دائماً على البساطة في المعيشة والطهارة في السلوك والمتانة في الأخلاق، والاعتدال في الصحة البدنية، فبدأ في التعلم وهو ابن ثلاث في بيت أسرته، على يد عمه الشيخ محمد المكي الإبراهيمي، فما بلغ تسع سنين إلا وهو يحفظ القرآن الكريم، ويحفظ معه من لغة العرب وشعرها ومتون العلم الكبيرة الشيء الكثير، دفتصدّر للتدريس وهو ابن أربع عشرة سنة خلفاً لعمه الذي أجازته إجازة عامّة قبل وفاته سنة 1903 م، وظل على ذلك إلى أن جاوز العشرين.

فرحل إلى المدينة متخفياً أواخر سنة 1911 م فرارا من ظلم الاستعمار، فالتحق بوالده الذي سبقه إليها سنة 1908 م، ومكث في المدينة المنورة، وفيها لازم الشيخين: الشيخ العزيز الوزير التونسي، والشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي، وأخذ بها، أيضاً، عن إبراهيم الأسكوبي، وأحمد البرزنجي الشهرزوري، ومحمد عبد الله زيدان

الشنقيطي، وعبد الباقي الأفغاني، وكان له بها مذكرات مع بعض أصحابه مثل الشيخ أحمد خيرات الشنقيطي، ومحمد العمري الجزائري.

وطاف بمعظم مكاتبها العامة والخاصة مثل مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، ومكتبة السلطان محمود، ومكتبة شيخه الوزير، ومكتبة بشير آغا، ومكتبة آل الصافي، ومكتبة رباط سيدنا عثمان، ومكتبة آل المدني وآل هاشم، ومكتبة الشيخ عبد الجليل برادة، ومكتبة الوزير التونسي العربي زروق، وكان يُلقى بها في الحرم النبوي الشريف دروسا في النحو والصرف والعقائد والأدب.

والتقى فيها لأول مرة بالإمام عبد الحميد بن باديس رحمته الله، الذي كان يؤدي فريضة الحج، واصطحبا مدة ثلاثة أشهر كانت كلها تديرا للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصلة للنهضات الشاملة، وهذه الفترة هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وقد مرّ في طريقه إلى المدينة بالقاهرة وأقام بها ثلاثة أشهر وأخذ عن بعض شيوخ الأزهر كالشيخ سليم البشري، والشيخ محمد بخيت، والشيخ يوسف الدجوي، والشيخ عبد الغني محمود، والشيخ السمالوطي، والشيخ سعيد الموحجي، وحضر بها عدة دروس في دار الدعوة والإرشاد.

وفي شتاء سنة 1917م خرج مع والده إلى دمشق بسبب ثورة الشريف حسين بن علي، وأقام فيها إلى أواخر سنة 1919م، وفيها التقى بثلة من علمائها، على رأسهم الشيخ محمد بهجت البيطار. ودّرس في بعض مدارسها الأهلية وألقى دروسا في الوعظ والإرشاد بالجامع الأموي، كما دّرس بالمدرسة السلطانية بعد قيام حكومة الاستقلال العربي بدمشق مدة سنتين، وهي المدرسة الثانوية الأولى بدمشق.

وتخرّج على يديه في ظرف سنة واحدة جماعة من الصفوف الأولى كانوا هم عماد الأدب العربي في سوريا، منهم: الدكتور جميل صليبا، والدكتور أديب الروماني، والدكتور المحايري، والدكتور عدنان الأناسي.

تزوَّج في تلك المدة بدمشق ومات والده وولده بها، ثم اضطربت أحوال سوريا في النصف الأخير من 1919م، فرجع إلى الجزائر في أوائل سنة 1920م، وبقي بها ينشر العلم في فترات متقطعة إلى أن جاءت سنة 1931م، وفيها تأسست جمعية العلماء الجزائريين تأسيساً رسمياً قانونياً، فانغمس في أعمالها وتشكيلاتها وانقطع إلى العلم وتأسيس مدارس ووضعه برامجه، وكيلاً لها في حياة ابن باديس رحمه الله، ورئيساً لها بعد موته.

أصدرت الحكومة الفرنسية أمراً باعتقاله في أوائل الحرب العالمية الثانية بدعوى أن وجوده خطر على الأمن العام، وتمّ نفيه عسكرياً يوم 10 أبريل سنة 1940م إلى قرية نائية في الجنوب الوهراني، ودام ذلك النفي قرابة ثلاث سنوات، ولمّا أطلق سراحه وضع تحت المراقبة الإدارية سنوات إلى أن انتهت الحرب.

انتُخب رئيساً لجمعية العلماء غيايباً وهو في منفاه بإجماع بعد وفاة الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله، يوم 16 أبريل سنة 1940م، وفي ليلة 27 ماي 1945م، بعد مذابح 8 ماي، كُبِسَتْ داره بقوة عسكرية، ففتشوا منزله وساقوه إلى السجن العسكري بالعاصمة، في غسق الليل وبصورة مزعجة، ولبث في السجن العسكري ومستشفاه أحد عشر شهراً، ثم أُطلق سبيله مع مَنْ أُطلق باسم العفو العام. كل هذا زيادة على الملاحقات الجزئية والمضايقات التي هي من طبيعة الاستعمار مع كل عامل على غير هواه.

وفي يوم 7 مارس سنة 1952م خرج من الجزائر إلى الشرق بتكليف من الجمعية، في رحلة منظمة البرنامج واضحة القصد: فقدم مصر وأقام في القاهرة أسبوعاً. ثم سافر إلى باكستان فأقام بها قريباً من ثلاثة أشهر، ثم رحل عنها إلى العراق، ثم رحل عنها بعد نحو ثلاثة أشهر إلى الحجاز في حج سنة 1952م، ثم رجع إلى القاهرة يوم 24 أكتوبر من تلك السنة، ثم تردّد منها على العراق والحجاز وسوريا والأردن والقدس مرات متعددة.

عاد إلى الجزائر عند الاستقلال عام 1962م، وخطب في أوّل صلاة جمعة في مسجد (كتشاوة) الذي حوله الفرنسيون إلى كنيسة، وأقام بالعاصمة ولزم بيته ولم يشارك في الحياة العامّة. ولكنّه لم يكن راضيا عن الاتجاه الذي بدأت تتجه إليه الدّولة بعد الاستقلال.

وفاته: توفي يوم الخميس الثامن عشر من المحرم سنة 1385هـ الموافق للتاسع عشر من مايو سنة 1965م، وقد بلغ 76 سنة.

مؤلفاته: لم يتسع وقته للتأليف والكتابة مع الجهود التي تأكل الأعمار أكلا، وانشغاله بتأليف قلوب الرّجال وتحرير عقول الشّعب تمهيدا لتحرير أجساده، وتصحيح دينه ولغته وموازين إدراكه ليصبح مسلما عربيا أيبا، ومع ذلك فقد ساهم بالكتابة في موضوعات عديدة مفيدة، ولكن لم يساعده الفراغ، ولا وجود المطابع على طبعها، وقد بقيت كلّها مسوّدات في مكتبته بالجزائر، وضاع الكثير منها. والذي بقي ممّا كتبه ﷺ:

(1) عيون البصائر: وهي من المقالات التي كتبها في جريدة (البصائر) في سلسلتها الثّانية، ثمّ جمعها بنفسه وطبعها، ثمّ طبعت عدّة مرّات؛ طبعت مُستقلّة، وطُبعت أيضًا، ضمن الآثار (الجزء الثّالث) مع بعض التعديل.

(2) ملحمة رجزية: تبلغ ستة وثلاثين ألف بيت، بقي منها أبيات معدودة في آثاره.

(3) رسالة الضّب: وهي مطبوعة ضمن آثاره.

(4) التّراث الشّعبي والشعر الملحون في الجزائر: رسالة أملاها من حافظته على تلميذه عثمان سعدي، صدرت عن دار الأُمّة، برج الكيفان، الجزائر العاصمة، الطّبعة الأولى، 2010م.

(5) رواية الثّلاثة: وهي مطبوعة ضمن آثاره.

وقد جمع نجله أحمد طالب المقالات التي كتبها والده في مختلف الجرائد والمجالات وكذا بعض مُراسلاته.

المبحث الأول

مفهوم التفسير شروط فهم القرآن عند الإمام الإبراهيمي

المطلب الأول: مفهوم التفسير عند الإمام الإبراهيمي

عرّف الإمام البشير الإبراهيمي رحمه الله، التفسير بقوله: «تفسير القرآن تفهيم لمعانيه وأحكامه وحكمه وآدابه ومواعظه»⁽¹⁾.

فهذا المفهوم للتفسير لا يقف عند الجانب العلمي النظري؛ وهو حدّ فهم المعنى، بل يتجاوزه إلى العمل بما يفهم منه من أحكام وآداب، وكأنّ هذا المعنى مأخوذ من الأثر المروي الذي فيه أنّ الصحابة رضي الله عنهم كانوا يأخذون من النبي، صلى الله عليه وسلم، عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتّى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، فتعلّموا العلم والعمل معاً⁽²⁾.

ولذلك فإنّ هذه المهمة لا يقوم بها إلّا من فهم المعنى حقاً، إذ فاقد الشيء لا يعطيه، وليس كلّ كتاب عنوانه (تفسير القرآن الكريم) يصدق عليه ذلك، فكثير من كتب التفسير ليس فيها من التفسير إلّا اسمه، ولهذا يقول الإمام الإبراهيمي، رحمه الله، في تمام النصّ السابق: «(والتفهم تابع للفهم، فمن أحسن فهمه أحسن تفهمه، ومن لم يحسن فهمه لم يحسن تفهمه وإنّ كتب فيه المجلدات وأملّى فيه ألوف المجالس)».

فقد ((جاء القرآن لهداية البشر وإسعادهم، والاهتداء به متوقّف على فهمه فهما صحيحاً))⁽³⁾.

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2 ص250.

(2) هو من قول أبي عبد الرحمن السلمي رحمه الله، أخرجه: الإمام أحمد في المسند، ج38 ص466، رقم 23482، وابن أبي شيبة في المصنّف، ج6 ص117، رقم 29929، وفي المسند، ج2 ص413.

(3) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4 ص226.

المطلب الثاني: شروط فهم القرآن حسب الإمام الإبراهيمي رحمته الله

تطرق الإمام البشير الإبراهيمي رحمته الله، لشروط فهم القرآن الكريم وتفسيره في أكثر من موضع من آثاره⁽¹⁾، فيذكر أنه لابد، أولاً، أن يكون المفسر صاحب فطرة سليمة، وتدبر عميق، وقريحة يقظة صافية، وذهن صافي نير، وذكاء وهاج، فليس كل أحد يصلح أن يكون مفسراً.

ثم يضع، ثانياً: خمسة شروط أخرى، وهي في الوقت نفسه تمثل طرائق التفسير الصحيح، وهي كالآتي:

أ) الاعتماد على القرآن نفسه: لأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، ويشهد بعضه لبعض، ويقيد مطلقه، ويخصص عامه، ويبيّن مجمله، ولذلك يحث الإمام المفسر على استعراض الآيات التي تناولت الموضوع نفسه كلها قبل الشروع في التفسير حتى لا يزل فهمه، قال رحمته الله: «... استعراض القرآن كله عند التوجه إلى فهم آية منه أو إلى درسها، لأن القرآن كل لا يختلف أجزاؤه، ولا يزيغ نظمه، ولا تتعاند حججه، ولا تتناقض بيّناته، ومن ثم قيل: إن القرآن يفسر بعضه بعضاً، بمعنى أن مبيّنه يشرح مجمله، ومقيده يبيّن المراد من مطلقه، إلى آخر الأنحاء التي جاء عليها القرآن في نظمه البديع، وترتيبه المعجز، ومنها الرجوع في مناحيه الخصوصية إلى مقاصده العامة، لأن خصوصيات القرآن وعموميّاته متساوقة يشهد بعضها لبعضها، وكلّ هذه الأمور لا تنتهي إلا لصاحب الفطرة السليمة، والتدبر العميق، والقريحة اليقظة، والذهن الصافي، والذكاء الوهاج.

وإن ذلك كله لموجود في القرآن بالنص أو بالظاهر أو بالإشارة والاقتضاء، مع مزيد تعجز عنه عقول البشر مهما ارتقت، وهو تعقيب كل حكم بحكمة، وكل أمر بما يشبه في النفس، وكل نهى بما ينفر عنه، لأن القرآن كلام خالق النفوس، وعالم ما تكن وما تبدي، ومركب الطبائع، وعالم ما يصلح وما يفسد، وبارئ الإنسان وسطاً بين

(1) ينظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2 ص251، 250، ج4 ص226.

عالمين: أحدهما خير محض والآخر شرّ محض، فجعله ذا قابلية لهما من غير أن يكون أحدهما ذاتيا فيه، ليبتلية أيشكر أم يكفر»⁽¹⁾.

وقال في تصديره للشيخ عبد العزيز العلي المطوع القناعي الكويتي الذي كتب خواطر متفرقة في معاني سورة (العصر) وغيرها: «وأوصيه بأن يعرض كل خاطرة تخطر له على القرآن كله ثم على الآيات الخاصة بموضوع الخاطرة، مع خلوص النية وصدق المعاملة مع الله في كتابه، وتوخي نفع المسلمين بدلالتهم على طرق الانتفاع بهذا الكنز الثمين، وأوصيه ونفسي بتقوى الله في السر والعلن، وتوقي مساخطه التي تطفئ نور البصيرة، وتردي مجترحها في المهلكات»⁽²⁾.

أ) الاعتماد على السنّة: فالسنّة هي المبيّنة لمقاصد القرآن، الشارحة لأغراضه بالقول والعمل، ولذلك على المفسّر الاطلاع الواسع على السنّة القولية والعملية.

ب) الاطلاع الواسع على فهوم علماء القرون الثلاثة الفاضلة: لأنهم أكمل الناس عقولا، وأحسنهم فهوما، وأسلمهم صدورا، وأخلصهم نوايا، وأقربهم عهدا بالسنّة النبوية، وهم المشهود لهم بالأفضلية.

ت) الاعتماد على أسرار البيان العربي: فعلى المفسّر التعمق في فقه أسرار اللسان العربيّ وبيانه، فقها ينتهي إلى ما يسمّى ملكة وذوقا.

ث) التأمّل في سنن الله في الكون: لأنّ «القرآن كتاب الكون، لا تفسّره حقّ التفسير إلّا حوادث الكون، والقرآن كتاب الدّعوة، لا تكشف عن حقائقه العليا إلّا تصاريّف الدّهر، والقرآن كتاب الهداية الإلهية العامّة، فلا يفهمه إلّا المستعدون

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4 ص227.

(2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4 ص232.

لها»⁽¹⁾، فعلى المفسّر «التأمل في سنن الله في الكائنات ودراسة ما تنتجه العلوم الاختبارية من كشف لتلك السنن وعجائبها»⁽²⁾. فمحال أن يخالف القرآن الواقع.

المبحث الثاني مناهج التفسير

المطلب الأول: منهج السلف في التفسير

لقد أبدى الإبراهيمي رحمته الله، وأعاد في الثناء على فهم السلف للقرآن الكريم والخصّ على اتباع طريقتهم، ومرجع ذلك إلى أنّ فهمهم، حسبه، هو الفهم الصحيح، يقول رحمته الله: «فهمه السلف حق الفهم ففسّروه حق التفسير»⁽³⁾.

ولأنّهم أدركوا الغاية من إنزال القرآن، وفهموه حقّ الفهم، وجعلوه دستور حياتهم، يقول الإبراهيمي: «وكان هؤلاء السلف يعلمون لماذا أنزل القرآن؟ ويعلمون أنّه كتاب الدّهر ودستور الحياة، وحجة الله الباقية إلى قيام الساعة وأنّه واف كلّ الوفاء بإسعاد البشر في الحياتين، وأنّ عدم فهمه وعدم العمل به وعدم تحكيمه كلّ ذلك تعطيل له. ففهموه أولاً وحكّموه في أهوائهم ونزعاتهم، فاستأصل باطلها ولطف من نزواتها، ورجعوا إليه في فهم الحقائق الغامضة في الحياة والدقائق المشكلة في الكون والأخلاق التي يجب أن يتعايش بها الناس، فرجعوا إلى معصوم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»⁽⁴⁾.

(1) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ج 4 ص 226.

(2) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ج 2 ص 250.

(3) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ج 2 ص 250.

(4) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ج 1 ص 325.

وقال: «فهمه السلف حقّ الفهم ففسّروه حقّ التفسير»⁽¹⁾.

وقال أيضاً: «كان علماء السلف يرجعون في كلّ شأن من شؤون الدين إلى القرآن، بل كان خلقهم القرآن كما كان النبي ﷺ، وكما ثبت في حديث عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويغضب لغضبه»⁽²⁾. وكانوا يحكمون القرآن في كلّ شيء، حتّى في الخطرات العارضة، والسرائر الخفية، حتّى تمكّن سلطانه من نفوسهم وأصبحت لا تتحرّك ولا تسكن إلّا بأمره ونهيه. وأصبحوا يقودون حتّى الخلفاء والأمراء بذلك السلطان. وذلك هو السرّ في علو كلمة الإسلام وسرعة انتشاره في المشرق والمغرب»⁽³⁾.

ولأنّ القرآن لا تتحقّق الغاية من إنزاله إلّا إذا فهمناه على طريقتهم وطبقناه كما طبقوه، يقول الإبراهيمي: «وكما أتى القرآن لأوّل نزوله بالعجائب والمعجزات في إصلاح البشر فإنّه حقيق بأنّ يأتي بتلك المعجزات في كلّ زمان إذا وجد ذلك الطّراز العالي من العقول التي فهمته، وذلك النمط السامي من الهمم التي نشرته وعمّمته، فإنّ القرآن لا يأتي بمعجزاته ولا يؤتي آثاره في إصلاح النفوس إلّا إذا تولّته بالفهم عقول كعقول السلف وتولّته بالتطبيق العمليّ نفوس سامية وهمم بعيدة كنفوسهم وهمهم»⁽⁴⁾.

فالفرق بيننا وبين السلف يكمن في فهم القرآن واتباعه، يقول الإبراهيمي: «تدبّر القرآن واتباعه هما فرق ما بين أوّل الأمتة وآخرها وإنّه لفرق هائل، فعدم التدبّر أفقدنا

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2 ص250.

(2) لم أجد هذا اللفظ، وإنّما المروي هو: «كان خلقه القرآن؛ يرضى لرضاه، ويسخط لسخطه»، انظر: البيهقي، شعب الإيمان، ج3 ص23 رقم 1360. وأبو جعفر الطحاوي، شرح مشكل الآثار، ج11 ص265 رقم 4434.

(3) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5 ص315.

(4) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2 ص249.

العلم، وعدم الاتّباع أفقدنا العمل، وإنّا لا نتعش من هذه الكبوة إلّا بالرجوع إلى فهم القرآن واتباعه»⁽¹⁾.

فإذا فهمناه فهم السلف عادت لنا العزّة وصرنا قدوة لغيرنا، يقول الإبراهيمي: «ولو فهمنا القرآن كما فهمه السلف، وعملنا به كما عملوا به، وحكّمناه في نفوسنا كما حكمّوه، وجعلنا أهواءنا ومشاربنا تابعة له وموزونة بميزانه، لو فعلنا ذلك لكنّا به أعزّة في أنفسنا وأئمة لغيرنا»⁽²⁾.

ويحدثنا الإمام البشير الإبراهيمي رحمه الله، عن منهج السلف في التّفسير، فيقول رحمه الله: «إنّ السلف تذرّعوا لفهم القرآن ذريعتين: الذّوق العربي الصّحيح، والسّنة النبوية الصّحيحة، وقد كانوا يؤمنون بأنّه كلّ لا يتجزّأ وأنّ بعضه يفسّر بعضه»⁽³⁾.

ويشرح أكثر بقوله: «أقام سلفنا الصّالح دين الله كما يجب أن يقام، واستقاموا على طريقته أتمّ استقامة، وكانوا يقفون عند نصوصه من الكتاب والسّنة، لا يتعدّونها ولا يتناولونها بالتأويل، وكانت أدواتهم لفهم القرآن، روح القرآن وبيان السّنة ودلالة اللّغة والاعتبارات الدّينية العامّة، ومن وراء ذلك فطرة سليمة وذوق متمكّن ونظر سديد وإخلاص غير مدخول واستبراء للدين قد بلغ من نفوسهم غايته وعزوف عن فتنة الرّأي وفتنة التأويل»⁽⁴⁾.

ويقول أيضاً: «كان علماء السلف يشرحون الجانب العملي من القرآن على أنّه هداية عامّة لجميع البشر، يطالب كلّ مؤمن بفهمها والعمل بها، وكانوا يتحاشون الجانب الغيبي منه لأنّه ممّا لا يصل إليه عقل المكلف فلا يطالب بعلمه ولا يحاسب على

(1) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ج 1 ص 327.

(2) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ج 2 ص 250.

(3) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ج 1 ص 326.

(4) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ج 1 ص 163.

التقصير فيه، وكانوا ينظرون إلى الجانب الكوني منه نظرات مُسدّدة لو صحبها بحث مُسدّد مَن أتى بعدهم»⁽¹⁾.

المطلب الثاني: مناهج المفسرين السابقين

يعرض الإمام الإبراهيمي بشيء من البسط مناهج المفسرين السابقين، بما ينم عن اطلاع واسع، وبصر ناقد، يقول ﷺ: «وللمفسرين من عهد التدوين إلى الآن طرائق في فهم القرآن وأساليب في كتابته تفسيره؛ أمّا الأساليب فقلما تختلف إلاّ بعد العصور حين تختلف الأساليب الأدبية، فتتخط أو تعلق فيسري التطور منها إلى الأساليب العلمية. أمّا الطرائق فإنّها تختلف باختلاف الاختصاص في المفسرين والعلوم التي غلبت عليهم وعرفوا بها»، ف «حكموا فيه نحلهم ومذاهبهم وصناعتهم الغالبة عليهم، فأضاعوا هديه وبلاغه وأبعدوا الأمة عنه، وصرفوها عن حكمه وأسراره».

ثمّ يسترسل ويزيد الأمر وضوحاً بعد هذا التعميم، فيقول: «فالمحدّثون يلتزمون التفسير بالمأثور، فإنّ اختلفت الرواية فمنهم من يروي المتناقضين ويدعك في حيرة، ومنهم من يدخل نظره وفكره في التعديل والترجيح كما يفعل أبو جعفر الطبري»⁽²⁾.

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2 ص250.

(2) هو: محمد بن جرير بن يزيد بن غالب أبو جعفر، إمام المفسرين، ولد بآمل بطبرستان سنة 224هـ، وبدأ في طلب العلم في السادسة عشرة من عمره، ثمّ رحل إلى بغداد واستقر فيها، بعد أن زار عدة بلدان. له مؤلفات كثيرة، أشهرها: تفسيره الكبير (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) المعروف بتفسير الطبري، وله: تاريخ الأمم والملوك، وتهذيب الآثار وغير ذلك، توفي في بغداد في شوال من سنة 310هـ. ينظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج2 ص548 رقم 539، القفطي، إنباء الرواة على أنباء النحاة، ج3 ص98، الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج7 ص160، وسير أعلام النبلاء، ج14 ص282، ومعرفة القراء الكبار، ص150-151، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج8 ص74، والسبكي عبد الوهاب، طبقات الشافعية الكبرى، ج3 ص120 رقم 122، وابن كثير، طبقات الشافعيين، ص222، غاية النهاية، ج2 ص106-108.

والمتكلمون في معاني القرآن معظمهم من اللّغويين والنّحاة، فهم يتكلّمون غالبا على الألفاظ المفردة وأوجه الإعراب، فهم أقرب الكاتبين في الغريب أمثال الأصفهاني⁽¹⁾ وأبي ذر الهروي⁽²⁾، وإنّما أطلقوا على كتبهم هذا الاسم (معاني القرآن) لأنّ بساطة الأسماء كانت هي الغالبة في زمنهم.

والإخباريون مفتونون بالقصص فلا يقعون إلّا على الآيات المتعلقة به، ويا ليتهم يحقّقون الحكمة من القصص، فيجلون العبر منها ويستخرجون الدّقائق من سنن الله في الأمم وجميع الكائنات، ولكنّهم يسترسلون مع الرّواية وتستهيهم غرابة الأخبار فينتهي بهم ذلك إلى الإسرائيليات الخاطئة الكاذبة وقد أدخلوا بصنيعهم هذا على المسلمين ضررا عظيما، وعلى التّاريخ فسادا كبيرا.

(1) هو: الحسين بن محمّد بن الفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني)، وانفرد السيوطي بتسميته (المفضّل بن محمّد) المعروف بالرّاغب: أديب، من الحكماء العلماء. من أهل (أصبهان) سكن بغداد، واشتهر، حتّى كان يقرن بالإمام الغزالي، توفي سنة 502هـ. من كتبه: محاضرات الأدباء، والذّريعة إلى مكارم الشّريعة، والمفردات في غريب القرآن. الزّركلي، الأعلام، ج2 ص255. بغية الوعاة ج2 ص297 رقم 2015.

(2) هو: عبد الله بن أحمد بن محمّد الهروي، أبو ذر: حافظ للحديث، من علماء المالكية، أصله من هراة، ولد سنة 355هـ، قام برحلة واسعة وجاور بمكة أكثر من ثلاثين سنة، ومات بها سنة 435هـ. له تصانيف، منها: مسانيد الموطأ، وفضائل مالك بن أنس، وبيعة العقبة، وكتابان في شيوخه؛ أحدهما في من روى عنه الحديث نحو ثلاثمائة شيخ، والثاني في من لقيه ولم يرو عنه. الزّركلي، الأعلام، ج2 ص255.

وأصحاب المذاهب العقلية إذا تعاطوا التفسير لا يتوسعون إلا في الاستدلالات العقلية على إثبات الصفات أو نفيها وعلى الغيبات والنّبوات وما يتعلق بها⁽¹⁾.

(1) يقول الإمام البشير الإبراهيمي عن الرّازي وتفسيره: ((وإنك لتطالع تفسير الرّازي، مثلاً، فتتلمح من جملة ذكاء يشع، وقريحة تتقد والمعية تكاد تنتزع منك بنات صدرك، فتظنّ أن سيكشف لك عن الجهات المتصلة بنفسك من القرآن، ويجلي لك سنن الله في الأنفس والآفاق، وإذا بالظنّ يخيب والفال يكذب، إذ ترى تلك القوى مصروفة إلى جهة غير التي تريد، وترى الرّجل وقد غلب على ذكائه وجرفته العادة التي تملكته إلى الآراء والعقليات وإثارة الشّبهات، وترى ذلك الدّهن العاتي يتخبط في مضائق هي دون قدر القرآن ودون قيمة ذلك الدّهن، حتّى ليسف فيزعم لك، مثلاً، أنّ أولي العلم في قوله تعالى: {شهد الله أنّه لا إله إلّا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط} [آل عمران: 18]، هم أهل الأصول... ونحن نعتقد أنّ الرّجل وأمثاله من الأذكياء ما أتوا إلّا من غرامهم بهذه المباحث الكلامية واستهتارهم فيها، ويمينا لو أنّ تلك الجهود التي تفرقت على الكلام تألفت على جهة عقلية أخرى لفتحت في العلم فتحة أغر زاهراً، ولتعجلت به الفخر للإسلام وأهله)) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج 1 ص 167-168.

والنّحاة والباحثون في أسرار التّراكيب لا يفيضون إلّا في توجيه الأعاريب أو في نكت البلاغة كما يفعل الزّخشي⁽¹⁾ وأبو حيان⁽²⁾»⁽³⁾.

(1) هو: محمود بن عمر بن محمّد بن أحمد الخوارزمي الزّخشيّ، جار الله، أبو القاسم، من أئمة العلم بالدين والتّفسير واللّغة والآداب، ولد في زخشر من قرى خوارزم، في رجب من سنة 467 هـ، وسافر إلى مكة فجاور بها زمنا فلقب بجار الله، وتنقل في البلدان، وورد بغداد أكثر مرّة، ثمّ عاد إلى الجرجانية من قرى خوارزم فتوفي فيها يوم عرفة سنة 538 هـ، أشهر كتبه: الكشف في تفسير القرآن، وأساس البلاغة (معجم)، والمفصل، وربيع الأبرار، والفائق في غريب الحديث، وغيرها. كان معتزلي المذهب مجاهرا، شديد الإنكار على المتصوفة، أكثر من التّشنيع عليهم في الكشف وغيره. خير الدّين بن محمود بن محمّد بن علي بن فارس، الزّركلي الدّمشقي (1396 هـ)، الأعلام، دار العلم للملايين، الطّبعة الخامسة عشر، مايو 2002 م، ج7 ص178. بغية الوعاة: ج2 ص279-280، وفيات الأعيان ج5 ص168.

(2) هو: محمّد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان الغرناطي الأندلسي الجباني، النّفزي، أثير الدّين، أبو حيان: من كبار العلماء بالعربية والتّفسير والحديث والتّراجم واللّغات. ولد في إحدى جهات غرناطة سنة 654 هـ، ورحل إلى مالقة. وتنقل إلى أن أقام بالقاهرة، وتوفي فيها سنة 745 هـ، بعد أن كفّ بصره. اشتهرت تصانيفه في حياته وقرئت عليه. من كتبه: البحر المحيط في تفسير القرآن، ومجاني العصر في تراجم رجال العصر، وطبقات نحاة الأندلس، وتحفة الأريب في غريب القرآن، ومنهج السّالك في الكلام على ألفية ابن مالك، والتّذييل والتّكميل في شرح التّسهيل لابن مالك، وارتشاف الضّرب من لسان العرب، وله شعر في ديوان. الزّركلي، الأعلام، ج7 ص152.

(3) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ج2 ص250-251. وللإمام السيوطي مثل هذا كلام، ينظر: السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدّين (911 هـ)، الإنقان في علوم القرآن، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، 1394 هـ-1974 م، ج4 ص243-244.

ثم إنَّ من المفسِّرين «(من اقتصر على الأحكام فقط كابن العربي⁽¹⁾ والجصاص⁽²⁾ وعبد المنعم بن الفرس⁽³⁾،... ومنهم من عمم ولكن توسعه ظاهر في الأحكام، أحكام العبادات والمعاملات، كالقرطبي⁽⁴⁾ وابن عطية⁽⁵⁾ وأضرابها)⁽⁶⁾».

(1) هو: محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي، أبو بكر ابن العربي: قاض، من حفاظ الحديث. ولد في إشبيلية سنة 468 هـ، ورحل إلى المشرق، وبرع في الأدب، وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين. وصنف كتباً في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ. وولي قضاء إشبيلية، ومات بقرب فاس سنة 453 هـ، ودفن بها. من كتبه: العواصم من القواصم، وعارضة الأحوذى في شرح الترمذي، وأحكام القرآن، والقبس في شرح موطأ ابن أنس، المسالك على موطأ مالك، المحصول في أصول الفقه، وقانون التأويل. الزركلي، الأعلام، ج 6 ص 230.

(2) هو: أحمد بن علي الرازي، أبو بكر الجصاص، فاضل من أهل الري، ولد سنة 305 هـ، سكن بغداد ومات فيها سنة 370 هـ. انتهت إليه رئاسة الحنفية. وسئل أن يلي القضاء فامتنع، تفقه على أبي الحسن الكرخي وتخرّج عليه، من كتبه: كتاب أحكام القرآن، وكتاب في أصول الفقه، وشرح مختصر الكرخي، وشرح مختصر الطحاوي، وشرح الجامع الصغير لمحمد بن الحسن، توفي يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة 370 هـ ببغداد. الزركلي، الأعلام، ج 1 ص 171، تاج التراجم، ص 96.

(3) هو: عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم الخزرجي، أبو عبد الله المعروف بابن الفرس: قاض أندلسي، من علماء غرناطة، ولد سنة 524 هـ، ولي القضاء بجزيرة شقر، ثم في وادي آش، ثم في جيان. وأخيراً بغرناطة، وجعل إليه النظر في الحسبة والشرطة. وتوفي في البيرة سنة 599 هـ، وقيل: سنة 597 هـ. له تأليف، منها: كتاب أحكام القرآن. الزركلي، الأعلام، ج 4 ص 168.

(4) هو: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن قُوح الأنصاري الخزرجي الأندلسي أبو عبد الله القرطبي، من كبار المفسرين، صالح متعبد، كان ورعاً متعبداً، طارحاً للتكلف. من أهل قرطبة، رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب (في شبالي أسبوط، بمصر) وتوفي فيها سنة 671 هـ. من كتبه: الجامع لأحكام القرآن يعرف بتفسير القرطبي، والأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، والتذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخر. الزركلي، الأعلام، ج 5 ص 321-322.

(5) هو: عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، من محارب قيس، الغرناطي، أبو محمد: مفسر فقيه، أندلسي، من أهل غرناطة، عارف بالأحكام والحديث، له شعر. 481 وولي قضاء المريّة، وكان يكثر الغزوات في جيوش المثلثين. وتوفي بلورقة سنة 542 هـ، وقيل: سنة 541 هـ، وقيل: 546 هـ. له المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. الزركلي، الأعلام، ج 3 ص 282.

(6) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 2 ص 251.

هذه جملة طرائق المفسرين بإجمال، ولكن الإبراهيمي يرى أن المفسرين « الذين يصدق عليهم هذا الوصف فهم الذين يشرحون فقه القرآن ويستثيرون أسراره وحكمه معتمدين على القرآن نفسه وعلى السنّة وعلى البيان العربي كما أشرنا إلى ذلك قبلاً»⁽¹⁾.

لذا يقول الإمام البشير الإبراهيمي: «ولو ذهبنا مذهب التحديد في معاني الألفاظ الاصطلاحية لوجدنا المفسر من هؤلاء قليلاً»⁽²⁾.

المطلب الثالث: حال التفسير والمفسرين في زمن الإبراهيمي

كان لانحطاط العالم الإسلامي أثرا بالغ على مختلف العلوم، والتفسير من تلك العلوم التي أصابها ذلك الداء، وقد وصف الإمام الإبراهيمي حاله التي صار إليها⁽³⁾، فذكر أنه انتشر بصورة جافة تعتمد على الحفظ المجرد، والفهم السطحي، والأسلوب التقليدي من التفسير اللفظي، واستعمال لغة المصطلحات العرفية، والأفكار الطائفية، والتعصب المذهبية، والمحامل الجدلية، والتوجيهات اللفظية، فجردوا القرآن من خصائصه العليا، وقيدوا هدايته العامة بمذاهبهم الخاصة.

وبأفكار غطى عليها الجمود وسدّ عليها منافذ التفكير، وبألسنه جافت البيان العربي وصرفت العجمة في منهاج غير منهاج العرب، ومُلئت كتب التفسير بالإسرائيليات المصنوعة والآثار الموضوعة والنظريات.

ويضرب لنا الإمام الإبراهيمي، رحمته الله، مثلا عن تلك الحال بأحد المفسرين كنموذج لذلك الواقع، فيقول: «وأشهد، لقد كنت ضيفا بتونس منذ سبع عشرة سنة، فقليل لي عن عالم من مشايخ جامع الزيتونة ومن أبعدهم صيتا في عالم التدريس: إنه يقرئ التفسير، فشهدت يوما درسه لأكون فكرة عن دراسة التفسير في ذلك المعهد

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج2 ص251.

(2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج2 ص251.

(3) ينظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج1 ص326، ج2 ص249.

الجليل، وكنت معنيا بهذا البحث وجلست، إليه أكثر من نصف ساعة، فو الذي نفسي بيده ما سمعت منه كلمة واحدة من الآية التي هي موضوع الدّرس ولا لمحت أمانة ولا إشارة تدل على أنّ الدّرس في التّفسير، وما كان كلّ الذي سمعت إلّا حكاية لجدل عنيف وتمثيلا لمعركة لفظية مستعرة بين السيّد الجرجاني وعبد الحكيم حول عبارة لعلها لمفسّر من المفسّرين الاصطلاحيين، ثمّ انقضت الحصّة وقام الطّلبة المساكين يتعثرون، تبدو عليهم سيّماء التّعب والملل والخيبة، وقمت أنا مُستيقنا أنّ هذه الطّريقة في التّفسير هي أكبر الحجب التي حجبت المسلمين عن فهم كتاب الله ثمّ زهدتهم فيه وصدتهم عن موارده»⁽¹⁾.

إنّ هذه الحالة كانت سبباً رئيساً في بعد المسلمين عن القرآن الكريم وفهمه واتّخاذه مهجوراً، إلى حد لم يسبق للأمة أن شهدت حسب الإبراهيمي رحمه الله، حيث قال: «إنّه لم يمض على المسلمين في تاريخهم الطّويل عصر هم فيه أبعد عن القرآن منهم في هذا العصر، ولم يمض على الدّعاة إلى الحق وقت عظمت فيه العهدة واستغلظ الميثاق مثل هذا الوقت، وإنّه لا مخرج لهم من هذه العهدة ولا تحلل من هذا الميثاق إلّا بالدّعوة إلى القرآن»⁽²⁾.

وفي المقابل نجده يثني على طريقة الأستاذ محمد بهجة البيطار، ومحمد عبده، وابن باديس؛ في التّفسير، فيقول عن البيطار: «علّم من أعلام الإسلام، وإمام من أئمة السّلفية الحقّة، دقيق الفهم لأسرار الكتاب والسّنة، واسع الاطلاع على آراء المفسّرين والمحدّثين، سديد البحث في تلك الآراء، أصولي النزعة في الموازنة والتّرجيح بينها، ثمّ له بعد، رأيه الخاص يوافق ما يوافق عن دليل، ويخالف ما يخالف إلى صواب، لأنّه مستكمل للأدوات المؤهلة لذلك، ولأنّه يفهم القرآن على أنّه أصل ترجع إليه الآراء والمذاهب والفهوم، وأنّه كتاب الكون، ودستور الإنسانية، لا كما يفهمه كثير ممن كتبوا

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج 1 ص 362.

(2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج 1 ص 322.

في التفسير. فجردوا أقلامهم لتسطير أفهام غيرهم، وجرّدوا القرآن من خصائصه العليا، وقيدوا هدايته العامة بمذاهبهم الخاصة⁽¹⁾.

ويقول عن محمد عبده: «ثمّ كانت المعجزة بعد ذلك الإرهاص بظهور إمام المفسرين بلا مُنازع محمد عبده أبلغ من تكلم في التفسير بيانا لهديه وفهما لأسراره وتوفيقا بين آيات الله في القرآن، وبين آياته في الأكوان، فوجود هذا الإمام وجد علم التفسير وتم، ولم ينقصه إلا أنّه لم يكتبه بقلمه كما بينه بلسانه، ولو فعل لأبقى للمسلمين تفسيراً لا للقرآن بل لمعجزات القرآن، ولكنه مات دون ذلك»⁽²⁾.

وقال عن ابن باديس: «... ثمّ جاء أخونا وصديقنا الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس قائد تلك النهضة بالجزائر بتفسيره لكلام الله⁽³⁾ على تلك الطريقة وهو من لا يقصر عن ذكرناهم في استكمال وسائلها؛ من ملكة بيانية راسخة، وسعة اطلاع على السنّة وتفقه فيها، وغوص على أسرارها، وإحاطة وباع مديد في علم الاجتماع البشري وعوارضه، وإلمام بمنتجات العقول ومستحدثات الاختراع، ومستجدات العمران، يمدّ ذلك كلّ قوة خطابية قليلة النظير، وقلم كاتب لا تفلّ له شبة»⁽⁴⁾.

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج3 ص564.

(2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج2 ص252. وقد أثنى على طريقته في التفسير في مواضع أخرى، منها: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج1 ص327. آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج1 ص343.

(3) فسر الإمام ابن باديس رحمته الله، القرآن الكريم في خمس وعشرين سنة، خلال دروس كان يلقيها في الجامع الأخضر بقسنطينة.

(4) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج1 ص327. وقد أثنى على طريقته في التفسير، أيضا، في مواضع أخرى، منها: ج1 ص184، 318، 343، ج2 ص252، 253، 254، ج5 ص314، 316.

إن إعجاب الإمام الإبراهيمي رحمه الله، بطريقة هؤلاء الأعلام الثلاثة في التفسير راجع، حسب النصوص السابقة، إلى التحرر من القيود العرفية ورفض الجمود والوقوف عند أقوال السابقين، وإلى استقلال الفكر، وتنزيل القرآن الكريم على الواقع واعتباره المرجع الأول والأساس في الإصلاح. ويمكن أن نستخلص من خلال هذه الأوصاف نموذج المفسر الحقيقي عند الإبراهيمي رحمه الله.

المبحث الثالث:

الإبراهيمي وتفسيره للقرآن الكريم

المطلب الأول: مكانة الإمام الإبراهيمي في التفسير

لقد كان الإمام الإبراهيمي رحمه الله، يملك ناصية فنون عديدة، وعلى رأسها علوم اللغة العربية، إلى جانب «حافضة خارقة للعادة، وقريحة نيرة، وذهنا صيودًا للمعاني ولو كانت بعيدة»⁽¹⁾، مع اطلاع واسع على أحوال المسلمين في مختلف أنحاء العالم، وعلى العلوم العصرية. وكل ذلك كان يؤهله ليكون من كبار المفسرين لو سئحت له الفرصة، وقد شهد له بذلك أقرانه ومعاصروه، حيث يذكر الإمام الإبراهيمي رحمه الله، أن الإمام ابن باديس رحمه الله، حضر ليلة درسا له في دار الحديث من تلمسان في قوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} [يونس: 87]، فقال له رحمه الله: «(بعد تمام الدرس ما معناه: إن هذا الدرس وحده كاف لإحياء أمة مستعدة، ولقد زادني هذا الدرس إيمانا بقوله ﷺ، في القرآن: «لا تنقضي عجائبه»⁽²⁾، وإن ما سمعته منك في معنى اتخاذ البيوت قبلة هو ما حوم عليه علماء

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 5 ص 274.

(2) أخرجه: ابن أبي شيبه في المصنف، ج 6 ص 125، رقم 30007، و 30008، وفي المسند، ج 1 ص 251 رقم 376، والترمذي، ج 5 ص 22، رقم 2906، والدارمي ج 4 ص 2089، رقم 3358، ج 4 ص 2098، رقم 3374، عبد الرزاق الصنعاني، المصنف، ج 3 ص 375،

الاجتماع في مبدأ تكوين الوحدة الاجتماعية للأمم، وأين هداية التجارب من هداية كلام الله؟ وَلَوِدِدْتُ لو أَنَّ المسلمين كُلَّهُم يسمعون مثل هذه الدُّروس»⁽¹⁾.

وقال الأستاذ عبد الحميد معيزة الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ، في قصيدة له⁽²⁾:

سطيف لك البشرى فطيري سرورا وجاري إذا شئت الدَّاري نورا
فهذا (بشير) العلم ألقى بك العصى فبري به جارا، وسري مجيرا
لنشر علوم الدِّين قام مشمرا بعزيمة صدق لا تلاقي فتورا
إذا شئت علوم الأوّلين فأمه فسل بعلوم الأوّلين خبيرا
(موطأ) كما شاء الإمام مهذب وحكمة لقمان تفيض غزيرا
وتفسير قرآن ستنفخ روحه فتبعث في كلّ البرايا نشورا
وإذا أردت البحث في علم عصرنا تجده بكنه الكهرباء بصيرا
نعم، حل في أرجائك الفصح ناصح أمين، فزيدي يا سطيف شعورا
وأذن في الأرواح والقوم نوم وقد خيم الجهل الميت دهورا

= رقم 6017، البزار، مسند البزار (البحر الزّخار)، ج3 ص71، رقم 836، الطَّبْراني، المعجم الكبير، ج9 ص130، رقم 8646، الحاكم، المستدرک على الصّحّاحين، ج1 ص741، رقم 2040، ج2 ص415، رقم 3447، والبيهقي، شعب الإيمان، ج3 ص333، رقم 1786، ج3 ص335، رقم 1788، ج3 ص371، رقم 1832، ج13 ص162، رقم 10110، وفي السّنن الصّغير، ج1 ص333، رقم 943.

(1) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ج2 ص195.

(2) ينظر: آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ج1 ص28.

المطلب الثاني: الإبراهيمي وتدريبه التفسير

رأت جمعية العلماء أن أهم سبب لضعف المسلمين هو بعدهم عن القرآن الكريم، والفهم الخاطئ له، ولذلك سعت لإعادة هيكلة ومكانة القرآن في نفوس الشعب، وتفسيره التفسير الصحيح، وجعلته المنطلق في الإصلاح.

لقد كان التفسير أهم الوسائل التي اعتمدتها جمعية العلماء، ومن قبلها الإمام عبد الحميد بن باديس رحمته الله، في دعوتها الإصلاحية، لذلك كلفت أصحاب الكفاءة من أعضائها بإلقاء دروس التفسير عبر مساجد الوطن ومدارس الجمعية، وخاصة في شهر رمضان.

وكان من هؤلاء الأعضاء الإمام البشير الإبراهيمي رحمته الله، الذي اشتغل، بعد رجوعه إلى الجزائر، بإلقاء دروس متنوعة في العربية والأدب العربي والفقه والحديث والتفسير والتاريخ، فكان يلقي دروس التفسير بالجامع الأعظم من تلمسان حتى أوقفته الإدارة الاستعمارية ببرقية من الوالي العام إلى عامل وهران، وكان ذلك في أواخر سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة⁽¹⁾، كما كان له درس في التفسير بين المغرب والعشاء في مدرسة دار الحديث بتلمسان⁽²⁾، هذا زيادة على الدروس التي كان يلقيها أثناء زيارته لمختلف أنحاء الوطن.

ولقد كان الإمام ابن باديس رحمته الله، يأمل أن يؤلف شقيقه الروحي الإمام الإبراهيمي رحمته الله، تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم، ويحضره على ذلك، أو أن يتعاونوا معاً على ذلك، ولكن حالت دون ذلك الحوادث، قال الإمام الإبراهيمي رحمته الله: «... كان ذلك الأخ الصديق رحمته الله، يعلل النفس باتساع الوقت وانفساح الأجل حتى يكتب تفسيراً على طريقته في الدرس، وكان كلما جرتنا شجون الحديث إلى التفسير يتمنى علي أن نتعاون على كتابة التفسير ويغريني بأن الكتابة علي أسهل منها عليه، ولا أنسى

(1) ينظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج3 ص232.

(2) ينظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج5 ص238.

مجلسا كنا فيه على ربوة من جبل تلمسان في زيارة من زياراته لي وكنا في حالة حزن لموت الشيخ رشيد رضا قبل أسبوع من ذلك اليوم فذكرنا تفسير المنار، وأسفنا لانقطاعه بموت صاحبه فقلت له: ليس لإكمالهِ إلّا أنت، فقال لي: ليس لإكمالهِ إلّا أنت، فقلت له: حتّى يكون لي علم رشيد وسعة رشيد ومكتبة رشيد ومكاتب القاهرة المفتوحة في وجه رشيد فقال لي واثقا مؤكدا: إنّنا لو تعاوننا وتفرغنا للعمل لأخرجنا للأمة تفسيراً يغطي على التفسير من غير احتياج إلى ما ذكرت. ولما احتفلت الأمة الجزائرية ذلك الاحتفال الحافل بختمه لتفسير القرآن عام 1357 هجرية وكتبت بقلمى تفسير المعوذتين مقتبسا من درس الختم وأخرجته في ذلك الأسلوب الذي قرأه الناس في مجلة الشّهاب، أُعجب به أيما إعجاب، وتجدد أمله في أن نتعاون على كتابة تفسير كامل، ولكن العوارض باعدت بين الأمل والعمل سنتين ثمّ جاء الموت فباعد بيني وبينه، ثمّ ألحت الحوادث والأعمال بعده فلم تبق للقلم فرصة للتحرير ولا لللسان مجالا في التفسير، وإنا لله⁽¹⁾.

ولكن آفة العلماء طلابهم، فكم من عالم ضيع علمه تلاميذه بإهمالهم التدوين، والإمام الإبراهيمي رحمه الله، لم يشذ عن هذه الظاهرة كأخيه ابن باديس، رحمهما الله تعالى، يقول الإمام الإبراهيمي رحمه الله، في جوابه لقول ابن باديس له: ((... ولو أنّ التلاميذ أوتوا حظا من النشاط والتّوفيق لما ضاعت هذه الدّروس ولنشرت كما هي، ففزنا بالحسنين))، قال: ((فقلت له: عزائي عن هذا أنّ دروسك لم تكتب وقد شارفت ختم القرآن، وأين هذا الوشل من ذلك البحر؟))⁽²⁾.

ورغم ذلك فقد حفظ لنا التاريخ مقالا نفيسا للإمام الإبراهيمي رحمه الله، في التفسير، هو النّموذج الوحيد الذي يمكننا من خلاله الاطلاع على خصائص تفسير

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2 ص253.

(2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج2 ص195.

الإبراهيمي رحمه الله، ومنهجه فيه، وإن كان لا يمكن الحكم من خلال مقال واحد، خاصة إذا أُلقي ارتجالاً⁽¹⁾.

المطلب الثالث: التعريف بمقال: درس في التفسير؛ سعادة المسلمين في العمل بالقرآن

هذا الدرس ألقاه ارتجالاً في حفل ختم الدروس السنوية بدار الحديث بتلمسان يوم الجمعة شهر أوت من سنة 1939م، وكان ذلك موعداً لختم سورة إبراهيم، عليه السلام، الذي صادف إتمامها العطلة الصيفية لهذا العام، بحضور الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله، الذي وفد على تلمسان ممثلاً لعمالي قسنطينة والجزائر، وقد شاركت العمالة الوهرانية في حضوره أيضاً، تناول فيه تفسير قول الله وَبَلَّغْ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوهُمْ وَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأَنْبِيَاءَ إبراهيم: 52. وقد علّق عليها الأستاذ محمد فارح ونشرها على حلقات في جريدة (الشعب)، ابتداء من العدد 6426، الثلاثاء 26 رمضان 1404هـ، 26 جوان 1941م⁽²⁾.

المطلب الرابع: منهجه في التفسير وخصائصه من خلال مقاله

(درس في التفسير؛ سعادة المسلمين في العمل بالقرآن)

أولاً: التفسير اللغوي: إنّ أبرز سمة لمنهج الإمام الإبراهيمي رحمه الله، في تفسير القرآن الكريم هي الاعتماد على اللغة، حيث يبدأ تفسيره للآيات بالمعاني اللغوية لألفاظها، ثمّ يقدم المعنى العام للآية، وفي هذا الدرس نماذج لذلك، منها:

(1) إنّ الارتجال عند الإبراهيمي ظاهرة بارزة ولعلّ مردّها إلى ضيق وقته عن التحضير، وهي تدل على قدرة عجيبة وذهن خارق لا نجده إلّا في النادر العلماء، إذ لا نجد تفاوتاً في أسلوبه، فالفرائد لأثاره لا يمكنه أن يميّز بين ما هو ارتجال، وما هو مُحَضَّر، قال الزركلي: ((وهو من خطباء الارتجال المفوّهين)). الأعلام، ج6 ص54.

(2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1 ص388.

قوله ﷻ: «﴿بَلَّغْ لِلنَّاسِ﴾»: البلاغ والبلوغ مصدران للفعل (بلغ) الثلاثي، ومعناها الوصول إلى النهاية في الأزمنة أو الأمكنة وغيرهما من الأمور الأخرى، وتصاريف هذه الكلمة في القرآن الكريم لا يخرج عن هذا المعنى، كقوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: 15]، ﴿لَهُمْ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفْتِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ [الرعد: 14]، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ﴾ [الأنعام: 149]، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَبْنِيَّ صَرَخًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَدَ﴾ [غافر: 36]، وتبليغ الرّسل وبلاغهم يؤديان هذا المعنى أيضًا، فهو إيصال كلّ ما كلّفوا إيصاله عن الله إلى عباده من دينه، وشرائعه ووحيه إيصالًا كاملاً غير منقوص.

ويقال شيء بالغ إذا كان متناهيًا في صفة مميزة كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَنُ عَلَيْنَا بَلَّغُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [القلم: 39] أي عهود مؤكدة بالأيان متناهية في التأكيد والتوثيق، ومنه بلوغ الحلم، وقد يقصر بهذه الكلمة عن معنى التناهي، وتطلق على ما يقاربه ويشارفه لمعنى، وهذا النحو، وهو إطلاق اللفظ على قريب من معناه، شائع في العربية، معدود من مجازاتها المشهورة، وعليه حُمل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: 2]، فليس المراد ببلغن هنا انتهين إلى آخر ما يعتدّن به، لأنهن، إن وصلن إلى ذلك، ملكن أمر أنفسهن، ولم يبق للرجال حقّ في إمساكهنّ ومراجعتهنّ⁽¹⁾.

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1 ص 399.

ثانيا: الاعتماد على السياق القرآني: ثم لابد مع ذلك من النظر في سياق الآيات لتحديد معانيها، فالسياق عنصر أساس في فهم النص القرآني⁽¹⁾ والترجيح بين الأقوال والاحتمالات اللغوية للألفاظ، يقول الإمام الإبراهيمي، رحمته الله، في الاحتمال الثالث من احتمالات مرجع الإشارة في قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾: ((وثالثها: أنها راجعة إلى ما بعد قصة إبراهيم من هذه السورة، وَيَتَدَيُّ من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: 42]، وهذا الاحتمال ضعيف ضيق، لا يقتضيه سياق الآيات التي قبله))⁽²⁾.

ثالثا: عُرِفَ القرآن أو استعمالات القرآن: لا يجعل الإمام الإبراهيمي، رحمته الله، التفسير اللغوي عمدة لوحده، بل لابد من النظر في طريقة استعمال القرآن الكريم للمواد اللغوية، فربّ كلمة في اللغة مُستعملة في القرآن الكريم على وجه مخصوص، فالقرآن الكريم له عرف خاص⁽³⁾ في استعمال بعض الألفاظ والصيغ والأساليب، يقول الإمام الإبراهيمي رحمته الله: ((وكلمة بلاغ أوسع معنى في الاستعمالات القرآنية من

(1) قال ابن القيم رحمته الله: ((السياق يرشد إلى تبين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته)) بدائع الفوائد، ج 4 ص 9.

(2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1 ص 403.

(3) قال ابن القيم رحمته الله: ((بل للقرآن عرف خاص ومعان معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها ولا يجوز تفسيره بغير عرفة والمعهود من معانيه فإن نسبة معانيه إلى المعاني كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ بل أعظم)) بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج 3 ص 27.

كلمة بيان، كما يظهر لمتدبر القرآن، المتفقه في أسرار مفرداته وتراكيبه، المستقري لمواقع الكلمات فيه»⁽¹⁾.

وقال ﷺ: «﴿وَلْيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ﴾: والألأباب جمع اللب وهو العقل، قيل: مطلقاً، وقيل: هو العقل الخالص من الشوائب أخذاً من أصل معناه، فلب الشيء ولأباه هو خالصه، وهذا هو الذي يجب أن تُفسر به هذه الكلمة في القرآن، لأننا نجده لا يذكرها إلا في المسائل التي لا تدركها إلا العقول الركية الرأجة كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَزْوَاجَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 269]»⁽²⁾.

رابعاً: الذوق القرآني: يرى الإمام أن تذوق القرآن الكريم من أساسيات فهم معانيه، ولا يكفي في فهمه الوقوف عند حدود دلالاته اللفظية، يقول في ذلك بعد أن ذكر معاني (البلاغ) اللغوية: «ومع هذا الشرح لتصاريف هذه الكلمة التي تلتقي في أصل واحد، فإن معنى كون القرآن بلاغاً لا يفهم بمجرد التعريفات الاصطلاحية، ولا بالوقوف عند حدود الدلالات اللفظية، فبلاغ معناه وصول، وهذا لا يقنع، وبلاغ بمعنى شيء بالغ أو شيء مبلغ لا يقنع، وإنما يفهم هذا ونحوه بالذوق القرآني»⁽³⁾.

وقال أيضاً: «إنَّ المتذوق لأسرار القرآن، المستخرج لِلطائِفِ المُقارِنَاتِ بين نفوس المصطفين من عباد الله، لِيَذْكُرُ بالذوق النَّفْسِي ذلك الحنان، وتلك الرَّقة التي تقطر من قول نوح اليائس من ابنه: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ بِالْغَيْبِ﴾»

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1 ص 403.

(2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1 ص 402.

(3) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1 ص 399.

[هود:45]، وتلك الشدة من خطاب إبراهيم لأبيه، ومن إيدانه بالبراءة، بعد ما تبين له أنه عدو لله⁽¹⁾.

ومن هذا النص الأخير نلمس خاصية أخرى عند الإمام، وهي:

خامسا: العناية باستخراج اللطائف القرآنية والاستنباط: ولالإمام الإبراهيمي، ﷺ، لمسات قد لا نجد لها عند غيره، ولو تفرغ لذلك لأخرج لنا العجب، ومن اللطائف التي ذكرها في غير هذا المقال، ما يأتي:

1 - «أن القرآن ذكر قصة الهجرة المحمدية من مكة إلى يثرب بأسلوب ليس من نسق التاريخ فسماها إخراجا من الذين كفروا ولم يسمها هجرة بصريح اللفظ، وإن سمي الصحابة المهاجرين، ونوّه بالهجرة، وحض عليها، وقرنها بالإيمان، وجعلها شرطا في الولاية فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ دِينٍ وَلَئِنَّهُم مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ وبعض الحكمة في ذلك أن التذكير بالإخراج من الديار يذكي الحماس، ويبقي الحنين إلى الديار متواصلا، وينمي غريزة الانتقام والأخذ بالثأر، وأن إيجاب الهجرة بتلك الأساليب المغرية البديعة، هو جمع لأنصار الحق في مأرز واحد، بعد تشتتهم لينسجموا ويستعدوا إلى الرجعة والكرّة»⁽²⁾.

2 - ومنها: «أن القتال لم يشرع في القرآن بصيغة شرع أو وجب أو غيرهما من صيغ الأحكام، وإنما جاءت الآية الأولى فيه بصيغة الإذن المشعرة بأنه شيء معتاد في الاجتماع البشري، ولكنه ليس خيرا محضا ولا صلاحا سرمدًا، وإنما هو شر أحسن حالاته أن يدفع شرا آخر. ومما قر في نفوس البشر أن بعض الشرور لا تدفع بالخير ولا تنقصم إلا بشر آخر. وإذا كانت الأحكام على الأشياء إنما هي بعواقبها وآثارها

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج1 ص395.

(2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج3 ص472.

فإنَّ الشَّرَّ الذي يدفع شراً أعظم منه يكون خيراً كقطع بعض الأعضاء لإصلاح بقية البدن»⁽¹⁾.

سادساً: التّرجيح بين الأقوال: لا يكتفي الإمام الإبراهيمي رحمته الله بسرد المعاني المحتملة التي ذكرها المفسّرون قبله في الآية، بل يختار منها الأصوب في نظره، ويرجّح فيما بينها، وعمدته في الاختيار والتّرجيح: العموم، والقوّة، والسّياق، وأسلوب الآيات، والدّوق القرآني، وتناسب طرفي السّورة، ومثال ذلك؛ قوله: «وَأَنَا أَخْتَارُ فِي مَرْجِعِ هَذِهِ الْإِشَارَةِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى الْقُرْآنِ كُلِّهِ، مَا نَزَلَ مِنْهُ قَبْلَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْمَكِّيَةِ وَمَا لَمْ يَنْزَلْ بِاعْتِبَارِهِ كَلَامَ اللَّهِ الَّذِي قَدَرَ إِنْزَالَهُ لِهَدَايَةِ خَلْقِهِ، وَهَذَا أَحَدُ احْتِمَالَاتٍ ثَلَاثَةٍ يَقْتَضِيهِ اللَّفْظُ، وَهُوَ أَعْمَهَا، وَأَقْوَاهَا، وَأَقْرَبُهَا إِلَى الدُّوقِ الْقُرْآنِيِّ وَإِلَى أَسْلُوبِ الْآيَاتِ الْوَاردَةِ فِي وَصْفِ الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: 92]، ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: 29]، ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: 50]، ولتناسب طرفي هذه السّورة، فقد بدئت بذكر الكتاب الموصوف بقوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ لتحقق النّزول، والكتاب إنّما يطلق على القرآن كلّ»⁽²⁾.

سابعاً: الاهتمام ببناء السّور والآيات: نرى في هذا الدّرس اهتمام الإمام ببناء السّور والآيات وتركيبها مثل توافق فواتحها وخواتمها، ليستخرج من ذلك المعاني والمقاصد، يقول عن سورة إبراهيم عليه السلام: «وهذه السّورة التي ختمت بهذه الآية بُدِئت بقوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: 1]، وإنّ استهلال سورة نسبت إلى إبراهيم واختتامها بالتّنويه بكتاب الإسلام لِإِشْعَارٍ لَنَا بِالصَّلَةِ الْوَثِيقَةِ بَيْنَ دِينِ إِبْرَاهِيمَ وَدِينِ الْحَقِّ الَّذِي جَاءَ هَذَا الْكِتَابُ لِبَيَانِهِ،

(1) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ج 5 ص 93.

(2) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ج 1 ص 402.

وبالأصالة العريقة التي انفرد بها هذا الدين الحنيف⁽¹⁾. وهذا داخل فيما يُعرف في علوم القرآن بعلم مقاصد السُّور، أو الوحدة الموضوعية للسُّور.

ثامنا: الاهتمام بقصص القرآن: في هذا الدّرس يتجلى اهتمام الإمام بقصص القرآن، يقول ﷺ: «وإنّ هذا القرآن لم يَعتنِ بتحليل أمة وتفصيل سيرها مثل ما اعتنى بأمة إسرائيل ليحذّرنا ممّا صنعوا حتّى لا تصيبنا عواقب ما صنعوا، كما أنّ القرآن لم يُفصّل في دعوة رسول من رسل الله، ولم يفصّل طرف الحجاج بين رسول وقومه ما أفاض وفصّل في دعوة إبراهيم ومحاجّته لأبيه وقومه، ليعرفنا بهذا الأب العظيم الذي زرع النّبوة في العامر والغامر⁽²⁾ من أرض الله، فأقر ابنه إسحاق في أرض كنعان، وأقر ولده إسماعيل في الحجاز لحكمة يستجليها المستعبر، ولا تعمى على المتدبّر⁽³⁾».

ويحثنا الإمام، ﷺ، على تدبّر قصّة إبراهيم، عليه السلام، لما فيها من الحكم والعبر، فيقول: «إنني أحث التّالين لكتاب الله من حفاظه والمنصّتين له من المحافظين على سماعه منهم، على تدبّر الآيات الجامعة لقصص إبراهيم، كلّما مرت بهم آية البقرة من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْنَىٰ إِلَهُهُمْ رَبُّهُم بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُمْ﴾ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴿قَالَ لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 124]، والآية الأخرى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُعْبَدُ قَالَ أَنَا أُخِيَّ وَأُمِّيْتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّكَ اللَّهُ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258]، وآية الأنعام: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: 75]»⁽⁴⁾.

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1 ص 392.

(2) الغامر من الأرض خلاف العامر، وهو ما غمره ماء أو رمل أو تراب وصار غير صالح للزّرع.

(3) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1 ص 394.

(4) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1 ص 397.

تاسعا: تنزيل الآيات على الواقع: كان أهم أهداف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إحياء الإسلام واللغة العربية في نفوس الجزائريين، اللذين عمل الاستعمار على محوهما من أرض الجزائر منذ وطئتها قدماء بشتى الوسائل، لذلك اعتنت جمعية العلماء بتفسير القرآن الكريم وإحياء عظمته وجلاله في النفوس، ومحاربة الفساد من خلال هديه ومواعظه وترغيه وترهيبه، لذلك يقول الإمام، رحمه الله، في آخر هذا الدرس: «إنّ هذه الآية وأمثالها هي أسلحتنا التي ندفع بها في نحور أعدائنا، وحوافرنا إلى ما نحاوله من فهم القرآن وتفهمه، وإلى ما ندعو إليه من إرجاع المسلمين إلى حظيرة القرآن»⁽¹⁾.

وفي هذا الدرس نجد نماذج لتنزيل الآيات على الواقع الجزائري آنذاك، ومثال ذلك قوله: «ومن آفات البعد عن هداية القرآن وعلوم القرآن وتربية القرآن أنّ الوثنية التي أودت بالأمم قبلنا، وكانت علة العلل في ضلالها وشقائها، ولقي منها رسل الله الألاقي حتّى قال نوح في الوثنيين من قومه بعد أن ذكر أسماء أوثانهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (٣٢) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴿ [نوح: 24]، وقال إبراهيم في أوثان قومه: ﴿رَبِّ إِنِّنَّ أَضَلَّكَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: 36]، هذا المرض الفتاك الذي استعصى على أولى العزم من رسل الله علاجه، هو الذي غفل عنه المسلمون، وهون شأنه علماؤهم الجامدون حتّى استشرى وأعضل.

فهذه القباب المشيدة، وهي أوثان هذه الأمة، أضلت كثيرا من الناس، وأكثر من الكثير، وافتتنوا بها، وبأسماء أصحابها حتّى ألهتهم عن دنياهم وأفسدت عليهم أخراهم، وغلوا في تعظيمها حتّى أصبحت معبودة تُشَدُّ إليها الرّحال، وتُقَرَّب لها القرابين والنذور، وتُسأل عندها الحاجات التي لا تُسأل إلّا من الله، ويحلف بها من دون الله، ويتآلى بها على الله، وما جرّ هذا البلاء على الأمة الإسلامية حتّى أضاعت الدّين والدّنيا، إلّا سكوت العلماء عن هذه الأباطيل أول نشأتها، وعدم سدّهم

(1) آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي، ج 1 ص 404.

لذرائعها حتّى طغت هذا الطّغيان على عقول الأُمّة، ولو أنّهم فقهوا الأُمّة في كتاب ربّها، وساسوها بسنة نبيّها لكان لها من سيرة إبراهيم ومحمد عاصم أي عاصم من هذا الشّر المستطير»⁽¹⁾.

وقال: «والمراد من الذّكر هنا ذكر القلب لأنّه الذي يقابل بالنّسيان، بخلاف ذكر اللّسان الذي أصبح فتنة للمسلمين فإنّه عمل جارحة، وهو فعل يُقابَل بالترّك»⁽²⁾.

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1 ص 397.

(2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1 ص 401.

خاتمة

بعد هذه الجولة وهذا العرض، نلخص أهم ما ورد في البحث في الآتي:

1) اتخذت جمعية العلماء وعلى رأسها الإبراهيمي تفسير القرآن أهم مصدر في منهجها الإصلاحي.

2) ركز الإبراهيمي على الجانب التطبيقي لمفهوم التفسير، لا على العلمي النظري.

3) تركيز الإبراهيمي على محاربة الجمود طريقة التفسير في زمنه وفتح باب الاجتهاد، لذلك نراه ينعى على حال التفسير في زمنه، وفي المقابل معجبا بطريقة المتحررين من القيود والجمود، كمحمد عبده، وبهجة البيطار، وابن باديس رحمهم الله تعالى.

4) ذكر الإبراهيمي شروط التفسير وطرقه الصحيحة، وهي، زيادة على أن يكون المفسر ذا فطرة سليمة، وتدبر عميق، وقريحة يقظة صافية، وذهن صافي نير، وذكاء وهاج، الاعتماد على تفسير القرآن بالقرآن نفسه، الاعتماد على السنة، الاطلاع الواسع على فهوم علماء القرون الثلاثة الفاضلة، الاعتماد على أسرار البيان العربي، التأمل في سنن الله في الكون.

5) يرى الإبراهيمي أن المفسر الحقيقي هو الذي تتوفر فيه هذه الشروط، ويتبع هذه الطرق في تفسيره.

6) يرى أن أصبح وأسلم طريقة في التفسير هي ما كان عليه السلف الصالح، لذلك ركز الإبراهيمي عليها وحث على اتباعها، لأنهم هم الذين طبّقوا الشروط والطرق السابق ذكرها حق التطبيق.

7) عرض الإبراهيمي مناهج المفسرين السابقين بشيء من البسط، بما ينم عن اطلاعا واسع، وبصر ناقد.

8) اشتغل الإبراهيمي بتدريس التفسير، وكان له فيه يد طولى نظرا لتمكّنه من ناصية علوم كثيرة، ولكن ضيّع علمه طلابه كما ضيّعوا علم ابن باديس من قبل، وقد شهد له بذلك أقرانه ومعاصروه، ويدل على ذلك أيضا الدرس الذي حفظ في آثاره، وهو تفسيره لقوله تعالى: ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا أَنُؤْمِنُوا بِالْآلَتِيبِ ﴾ [إبراهيم: 52]، فهذا الدرس يبرز جانبا من منهج الإبراهيمي المتكامل في تفسير القرآن الذي تعددت ركائزه.

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على رسوله الكريم

وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

المصادر والمراجع

- (1) القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم رحمهما الله تعالى، طبعة مجمع الملك فهد للمصحف الشريف.
- (2) الإبراهيمي محمد بن بشير بن عمر (1385هـ)، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1997م.
- (3) ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي أبو بكر (235هـ)، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، 1409هـ.
- (4) ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي أبو بكر (235هـ)، المسند، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي وأحمد بن فريد المزيدي، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، 1997م.
- (5) ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف أبو الخير شمس الدين (833هـ)، غاية النهاية في طبقات القراء، مكتبة ابن تيمية.
- (6) ابن حنبل أحمد بن محمد بن هلال بن أسد أبو عبد الله الشيباني (241هـ)، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1421هـ-2001م.
- (7) ابن خلكان أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر البرمكي الإربلي أبو العباس شمس الدين (681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1900م-1994م.

- (8) ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- (9) ابن كثير إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي أبو الفداء (774هـ)، طبقات الشافعيين، تحقيق: أحمد عمر هاشم، ومحمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، 1413هـ-1993م، ص222.
- (10) البزار أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي أبو بكر (292هـ)، البحر الزخار (مسند البزار)، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (بدأت 1988م، وانتهت 2009م).
- (11) البيهقي أحمد بن الحسين بن علي الخراساني، أبو بكر (458هـ)، شعب الإيمان، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض بالتعاون مع الدار السلفية بومباي، الهند، الطبعة الأولى، 1423هـ-2003م..
- (12) البيهقي أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني، أبو بكر (458هـ)، السنن الصغیر، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، باكستان، الطبعة الأولى، 1410هـ-1989م.
- (13) الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاک، أبو عيسى (279هـ)، الجامع الكبير (سنن الترمذي)، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م.
- (14) الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري أبو عبد الله (405هـ)، المستدرک علی الصحیحین، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1411هـ-1990م.

15) الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (ت463هـ)، تاريخ بغداد، تحقيق: بشار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1422هـ-2002م، ج2 ص548 رقم 539.

16) الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمَاز أبو عبد الله شمس الدين (ت748هـ)، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1417هـ-1997م.

17) الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمَاز أبو عبد الله شمس الدين (ت748هـ)، تاريخ الإسلام وَوَفَيَاتِ المشاهير وَالْأَعْلَام، تحقيق: بشار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 2003م، ج7 ص160.

18) الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمَاز أبو عبد الله شمس الدين (ت748هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة، 1405هـ-1985م، ج14 ص282.

19) الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، مايو 2002م.

20) السبكي عبد الوهاب بن تقي الدين تاج الدين (ت771هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر، الطبعة الثانية، 1413هـ، ج3 ص120 رقم 122.

21) السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين (ت911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1394هـ-1974م.

22) السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين (ت911هـ)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان.

(23) الصّفيدي خليل بن أيّك بن عبد الله صلاح الدّين (ت764هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التّراث، بيروت، لبنان، 1420هـ-2000م، ج8 ص74.

(24) الطّبراني سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللّخمي الشّامي، أبو القاسم (360هـ)، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السّلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطّبعة الثّانية.

(25) الطّحاوي أحمد بن محمد بن سلامة الحجري المصري أبو جعفر (321هـ)، شرح مشكل الآثار، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطّبعة الأولى، 1415هـ-1494م.

(26) عبد الرّزاق الصّنعاني بن همام بن نافع الحميري الياني أبو بكر (211هـ)، المصنّف، تحقيق: حبيب الرّحمن الأعظمي، المجلس العلمي، الهند، الطّبعة الثّانية، 1403هـ.

(27) عبد الله بن عبد الرّحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصّمد الدّارمي التّميمي السّمرقندي أبو محمّد (255هـ)، مسند الدّارمي (سنن الدّارمي)، تحقيق: نبيل هاشم الغمري، دار البشائر، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 1434هـ-2013م.

(28) قاسم بن قُطلُوبغا السّودوني أبو الفداء زين الدّين أبو العدل الجمالي الحنفي (879هـ)، تاج التّراجم، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار القلم، دمشق، الطّبعة الأولى، 1413هـ-1992م.

(29) القفطي علي بن يوسف أبو الحسن جمال الدّين (646هـ)، إنباه الرّواة على أنباه النّحاة، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة - مؤسسة الكتب الثّقافية، بيروت، الطّبعة الأولى، 1406هـ-1982م، ج3 ص98.